عيالُ الله في أرضٍ ممزّقة: من الجذور الروحيّة إلى مشروع يُشبه الملكوت

خريستو المرّ

في الرؤية الأرثوذكسيّة، ليس الإيمان مجرّد فكرة ذهنيّة أو مشاعر دينيّة، بل حركة وجوديّة تنبع من أعماق القلب – قلب منفتح على نعمة الله، ومتجاوب معها في مسيرة خلاص تتجلّى في التاريخ، لا خارجه. فالإيمان هو، أوّلاً، لقاء شخصيّ مع الله الحيّ، وثانيًا التزام بجملة من القيم التي تنبع من حضوره، مثل المحبّة، والحرّية، والعدالة، والكرامة. بهذا المعنى، الإيمان لا يُختزل في طقوس، ولا يُقاس بمظاهر خارجيّة، بل يُختبر في الصليب اليومي الذي يحمله المؤمن طوعًا في وجه الخطيئة والظلم. بحيث يجذّر هذا الصليبُ الإيمانَ، بينما يصير الصليب بالإيمان درب قيامة.

حين يتحوّل هذا الإيمان إلى فعل جماعيّ، لا ينبغي أن ينحصر ضمن جماعة دينيّة فالمبادئ الأخلاقيّة النابعة من الإيمان تجمع الناس المتفرّقين قبائل وجماعات، ليتعارفوا ويعرفوا أنّهم واحدا في التقوى، أي في العمل اليوميّ من أجل أن تكون الأرض مجالا يعيش فيه البشر في عدل وحرّية، عيالا لله، في وحدةٍ تشبه وحدة المحبّة العائليّة كما ينبغي أن تكون.

هكذا يصبح العمل العام الجماعيّ، خاصّة في بلاد متنوّعة الفلسفات والمشارب، مجالا للوحدة والعدل؛ ويتجلّى الدين، لا بوصفه سلطة دنيويّة، بل كتعبير بشريّ عن توقٍ روحيّ مشترك. إنّ المشروع السياسي القائم على هوية دينيّة، حتى وإن كان مقاومًا ومنفتحًا، يعجز عن أن يكون وطنيًّا جامعًا. فالمجتمع تعدّدي بطبيعته حتّى ولو كان من دين واحد، ولذلك يحتاج إلى مشروع يُنادي بالكرامة والعدالة والحرّية، ليس بلغة طائفة أو مذهب أو جماعة، بل بلغة الإنسان، صورة الله، وهو ما تتضمّنه رمزيا بشكل ما عبارة «عيال الله».

من هنا، لا يُطلب من الناس المقاومين للظلم أن يتخلّوا عن الجذور الروحيّة لمقاومتهم- فمن تلك الجذور تنبع قوّة المقاومة- بل أن تكون الأطر الدينيّة التي يتبعونها مجالا يعبّون منه القوّة الروحيّة لينطلقوا إلى أفق إنسانيّ أرحب، وتعميق مشروع إنسانيّ يحاول إرساء العدل ما أمكن في هذه الأرض، مشتركين بذلك مع غيرهم المتنوّع في رسم تباشير الملكوت في هذه الحياة. هكذا مشروع إنسانيّ متنوّع المنطلقات وواحد في هدف الانسجام مع المبادئ الإيمانيّة-الإنسانيّة الكبرى، هو لا بدّ مشروع سياسيّ مقاوم للظلم وللاستعمار، وهو مشروع رحب لا يلغي التنوّع بل يحتضنه؛ مشروع يُعلن أنّ العدالة لا تُجزّأ، وأنّ الحرّية لا تُمنَح لجماعة دون أخرى، وأنّ الحقيقة في المجتمعات الإنسانيّة لا تُحتكَر.

إنّ الإيمان المسيحيّ يدعونا إلى أن نكون ساعين إلى الملكوت، إلى «المدينة الباقية»، لا إلى سلطة أرضيّة تُعاد إنتاجها عبر الظلم والتقوقع والتسلّط والاحتكار. الملكوت، في معناه العميق، يبدأ هنا؛ هو ليس وهمًا روحيًّا، بل تحقّقٌ تاريخيّ في قلب الصراعات والأنظمة، حيث يقوم جسد المسيح حيًّا عبر كلّ مقاومة للشرّ تمرّ بنا بما يشبه خبرة الموت على طريق آلام، عبر كلّ فعل حُبّ في وجه القتل، وكلّ وحدة تُبنى فوق جراحات الانقسام. إنّ علامات الأزمنة التي نراها حولنا تدعونا، في بلادنا التي يمزّقها الاستعمار ويعيث فيها إبادة وظلما، إلى ابتكار مشروع سياسيّ لا يفصل الإيمان عن الحياة، ولا يُقزّم الإيمان إلى شعار، بل يُجسّده في عمل جماعيّ يسعى إلى جمع ما فرّقته الهويّات، ويقاوم ما سحقه الاستعمار، ويُحرّر ما قُيّد باسم الدين، مشروع يُقيم العدل ويصنع وحدة في التنوّع. هذا هو التحدّي الذي يحتاج إلى صلابة الرجاء، تلك الصلابة التي نحتاجها كي تعين قلّة إيماننا أمام شراسة التجارب التي تضعنا فيها شياطين الاستعمار الإباديّة. علّنا نكون من الذين يقيمون العدل بالإيمان والعمل الجدّي وصلابة الرجاء.